التراث والحداثة في فكر علي شريعتي

الأستاذ : شنافي محمد

(أنا سني المذهب ، صوفي المشرب ، بوذي ذو نزعة وجودية ، شيوعي ذو نزعة دينية ، مغترب ذو نزعة رجعية ، واقعي ذو نزعة خيالية، شيعي ذو نزعة وهابية)

(علي شريعتي.)•

مصطلحات تحمل حد التناقض بالتعبير المنطقي ، التي يحدد المفكر الايراني علي شريعتي منها هويته ، و ملامح شخصيته ، فقد انطلق من أصول مذهبه الشيعي ، فأسس نفسه دينيا وعلميا، ثم ذهب إلى الغرب ينهل من علومهم الدنيوية ، ومن هنا استطاع الولوج إلى منظومة التفكير الشيعي من باب الدارس الموضوعي و ليس المؤمن المنتمي للمذهب ، ومحاولة خلخلة البنية التي يقوم عليها، انطلق من التفكير العقلاني الذي يستنهض التفكير وطرائقه العميقة ، و بدأ يهدم ويبني ، يهدم الأصول الفكرية التي دمرت التصور الشيعي الراقي والنظيف وحولته من ثورة عارمة ورؤية عميقة للدين والحياة وحركة الإسلام ، إلى رؤية محصورة في شخوص الأئمة والمقلدين، فمضى يضرب العمق الفكري الشيعي ، يبني ويرتقي بالتفكير ليصل إلى مفهوم الإسلام الذي عاشه علي بن أبي طالب ومن جاء بعده من الأئمة ، ضمن مشروع فكري يتجاوب مع الانساق الفكرية المعاصرة و البعدين الزماني و المكاني للامة الاسلامية قاطبة . مشروع الفيلسوف علي شريعتي نابع من المرجعية المعرفية التي تقوم جملة على الاسس التالية : أن الرجل بصفته متخصصاً في علم الاجتماع الديني كان وليد تشبعه بالافكار الدينية والاساليب الوعظية التبليغية المقتصره على الأفكار القليلة والكتابة بلغة مبسطة اقرب ما تكون إلى الشعر، عمل على ربط الناس بالتراث عن طريق توظيفه الدقيق للحكايات والأساطير وسيرالشعوب، بالموازاة إطلاعه الواسع على الأفكار والفلسفات المعاصرة ومقارنتها مع الطروحات الإسلامية . و تأثره الشديد بابي ذر مما جعله لا يقبل بأنصاف الحلول ولا يعتمد الحلول البنائية طويلة الأمد ، كان منهجه كابي ذر «المنهج الثوري» وقد صدر له كتاب يحمل العنوان نفسه. « أبا ذر الغفاري الذي أخذت منه إسلامي وتشيعي وهدفي وألمي ومحنتي وشعاري وأشاركه في صرخته التي هزّت المدينة والشام وفي تطرفه الذي لم يراعي فيه المصالح! فلم يجلس أبو ذر جلوس أهل العلم والتحقيق والنقد ليطرح الحقائق في لفيف من العبارات الغامضة وأمام العلماء والخواص فقط رعاية للمصالح بل نراه يحمل عظماً

يجده في الزقاق ويذهب إلى خليفة رسول الله ويصرخ بوجهه:» يا عثمان أنك أنت السبب في فقر الفقراء وغنى الأغنياء (1)كان ولا يزال الشخص الوحيد الذي استطاع أن يخترق سلطة رجل الدين ومحل عمله» المسجد»على الرغم من كونه لا يرتدي زي الدين الرسمي حتى نافس أروع وأعظم رجال الدين في زمنه وهو الشهيد مطهري.

منهجية شريعتي في فهم الإسلام: لا شك ان منهجية فهم الاسلام تختلف من عالم لاخر حسب الاعتقاد المذهبي و التخصص المعرفي والانتماء الاجتماعي و السياسي ، فعادة علماء اهل السنة يميلون الى تغليب الجانب الايماني الوارد في القرآن الكريم المنصوص عليها شرعا تتعلق بالغيبيات سلفا و مؤخرا ، بينما يضع شريعتي خمسة أسس للتعرف على ديننا الاسلامي تتعلق بما يلي :

1. معرفة الله:
2. معرفة القرآن:
3. معرفة الرسول:
4. كيفية ظهور النبوة:
5. معرفة النماذج البشرية التي خرجها الإسلام(2)

فالملاحظ ان هذه الاسس تعتمد على الاستخدام العقلي وليس الايمان التقليدي (الذي يميل الى الوراثي منه الى الاقناعي) بادراك المتعلق به ، خالق الكون و الغاية من وراء خلقه والوسائط التي انبنى بها الخلق لتأدية رسالة الاستخلاف و العبادة عبر الرسل و الكتب المنزّلة عليهم تشريفا و تشريعا لتبيان المسالك الحياتية للافراد و الجماعات والفئات العمرية و الجنسية كل حسب مؤهلاته و مسؤولياته المنوط القيام بها اتجاه الذات و الاخر و البيئة و الانسانية جمعاء ، واستقراء الوقائع و الاستدلال عليها حجة وبرهانا و الكشف عن اسبابها و حيثياتها و القواطع و الفواصل فيما بينها ، و تأثيراتها على مختلف المستويات و الابعاد الفردية و الجمعية .

ما العودة الى الذات ؟

منذ قرنين تعالت الاصوات المنادية في العالم الاسلامي بالتحرر والانعتاق من قبضة الاستدمار حسب تعبير المفكر الجزائري و الوزير السابق مولود قاسم نايت بلقاسم ، بلونيه الانجليزي و الفرنسي و النهوض بالمجتمعات الاسلامية من غفوتها وسباتها التي طالت منذ عهد (مابعد الموحدين) الصيغة اللفظية لمالك بن نبي ، وظهر اتجاهان متعارضان متناقضان «

العلماني التنويري « و « الاصالي السلفي « ، هذا الاخير بدوره انقسم شيعا و طوائف ، كل من يحمل شعاره يتبنى مشروعا يتشبث بالاصول الدينية والثقافية ، والسوسيوسيكولوجية للفرد المسلم على الرغم من التباينات فيما بين تلك النماذج التي قد تصل الى الانفصام ، فلا يمكن ادراج بسلاسة مشروع سيد قطب مع مشروع مالك بن نبي في خانة واحدة مع ان القاسم الاكبر واحد يجمعهما و هو الرجوع الى روح الاسلام لكن طروحاتهما و معالجتهما لقضايا العصر تختلف جذريا وفق الرؤى و الاساليب والكيفيات و المنهج ، هذا ما يطرح مشكلة و يزيد في تفاقمها ويؤجل الحل .

يشير معنى الذات الى خلاف الغير، أي حقيقة الشيء ، فالذات هي الحقيقة الكلية، والصفة هي العرض القائم في الموصوف. فذات الإنسان هي كله بما فيه من صفات ومواد، بينما صفاته هي المعاني القائمة به من شجاعة وجمال وذكاء ونحوها. تعني العودة حسب الشريعتي : « العودة إلى الثقافة الإسلامية والأيديولوجية الإسلامية وإلى الإسلام لا كتقليد أو وراثة أو نظام عقيدة موجود بالفعل في المجتمع بل إلى الإسلام كأيديولوجية وإيمان بفترة الوحي وأحداث المعجزة في هذه المجتمعات، هذه الذات قديمة وعتيقة، ذات سجلت في التاريخ، ذات قطع أمد طويل من القرون علاقتنا بها، تلك الذات موجودة في التاريخ، وهذه العودة لا تعني العودة إلى عراقة الحمار بل هي العودة إلى الذات الموجودة بالفعل والموجودة في قلب المجتمع وفي وجدانه تصير مثل مادة ومنبع من منابع الطاقة تفتت على يد مفكر وتستخرج وتحيا وتتحرك. هي الذات الحية ليست تلك الذات العتيقة القائمة على عظام نخرة، هي القائمة على أساس الإحساس العميق بالقيم الروحية والإنسانية عندنا والقائمة على أرواحنا واستعداداتنا والموجودة في نظرتنا إلى الأمور عودة الى الذات هو الشعار الذي طرحه المفكرون كآخر تجربة ثقافية مضادة للاستعمار ، لكن الى أي ذات نعود ؟ إننا نملك ذاتا قديمة ترجع إلى العصور التاريخية السحيقة، ولكن الإسلام شكل جذورا للعالم الإسلامي جعل الذات الإسلامية هي موضع الرجوع والعودة على نحو يبعث على الوعي والتقدم يتغلب على كل ذات أخرى. العودة الى الذات التي يصيغها شريعتي تفكيك للازمة ويطرحها حلا لواقع المسلم على كافة المستويات ، المستوى الفردي ، مستوى الامة ، مستوى العالم ، فهي التي تخلص المسلم من التقولب و الاستقطاب و الاتجاهات المحددة سلفا ، هذا الحل يمثل في حد ذاته معجزة يقدمها الايمان و الوعي ، و تذهب الخيوط التي ينسجها الحكام في التاريخ على مر القرون – وبرغم المجتمع انكاثا – و تحرقها و تحولها الى رماد ، فكل مفكر ينبغي ان ينطلق من تاريخ و من ثقافة و بلسان قومه ، و لا شك في ان المفكر « المفرغ « او « المشبه « هو اكثر خطرا من كل المتشبهين و

المفرغين داخليا (3) ، ويعين الذات الحقة هي الذات التي يمثلها الاسلام الرسالي الذي جعل بضعة من الحفاة البدو والجهلة امة قضت على امبراطوريتين عظيمتين (الفرس و الرومان) و أقامت حضارة ، هذا الاسلام الذي حوّل جندب بن جنادة قاطع الطريق الوثني الذي ياكل صنمه الى ثوري و مفكر عظيم دون ان يبدل ثوبه او يغير راحلته (4) ، هذه الذات تواجه الذات الاخرى ممثله في الذات الغربية النموذج و المطمح ، المثال عند الامم المتاخرة والنامية ، التي تحتكر التمدين و الحضارة و التقدم ، و تمثلنا لهذه الذات هو من قبل الاخطاء البشعة لاننا عندما اردنا ان ننقل التجربة الغربية كانت النتيجة مأساة وخسارة لكل شئ ، فقد فهمنا انهم تقدموا لانهم حبسوا الدين في الكنيسة ، فقمنا بحبس الدين في المسجد ، وأقاموا حكومات علمانية ففعلنا مثلهم ، ولم يفهمونا انهم أقاموا حضارتهم على نهبنا و استغلالنا و استحمارنا (5)، و يبين الشريعتي ان العودة اى الذات يتطلب قطع المراحل الثلاث التالية :

تتعلق بالفرد هي مرحلة بناء الذات الثورية ويعني تربية الذات ثوريا كأصالة محددة و معينة و منح التكامل لجوهر الوجود ، بناء الذات يكون نابعا من التجارب الماضية التي مرت بها الشعوب عبر مختلف التاريخية ضمن الابعاد الثلاثة : العبادة ، العمل ، و النضال الاجتماعي مع سحق الهوّة بين الافراد و الطبقات (طبقة رجال الدين ، طبقة العلماء ، طبقة الزراع ، طبقة الزعماء السياسيين) ، انطلاقا من الانسان هو المخلوق الوحيد من بين كل مظاهر الوجود الذي يملك اربع خصائص ممتازة يمثلها الله أ- الوعي ب- الارادة (الحرية و الاختيار والقدرة على الاختيار) ج – المثل د – الخلاّقية ، هذه الخصائص تمنحه القدرة السيطرة و القدرة على الطبيعة و تجعله مسؤولا امام هذه الارادة الواعية الخلاقية المطلعة و المافوق الانسانية ، أي الشعور الذي تنبعث منه معجزة الحركة و النظام و الحياة (6)، فلا يوجد في الاسلام تناقض في الاسلام في تحديد المعالم و الصفات المكونة للفرد دون تميز او تخصص بين الفئات و الافراد ، بحيث يمكن ان تجتمع عدة وظائف عند الشخص الواحد يكون اماما و عالما و معلماو عاملا في آن واحد ، و لا مانع ان يكون الخليفة ممتهنا لصنعة او تجارة يكسب قوته بيده .

المرحلة الثانية خاصة بتصحيح مفاهيم الدين في المجتمع ، انطلاقا من مركز هذه المفاهيم و هو التشيع ، مفرقا بين التشيع الصحيح و التشيع الصفوي ••، حيث يرى ان كل رموز التشيع الموجود في ايران و شعائره رموز مسيحية ، و مظاهر المسيحية ادخلها الصفويون على يد طلائع الغزو الفكري الغربي لكي يفصلوا ايران تماما عن الاسلام السنّي الذي كان مذهب الدولة العثمانية عدوتها التقليدية ، وتتمحور الفواصل بين النمطين التشيعين بناءا على الاسس

العقيدية التالية :

العصمة في التشيع الصفوي هي حالة فيزيولوجية و بيولوجية و باراسيكولوجية خاصة لدى الأئمة تمنعهم من الارتكاب الذنوبة المعاصي ، حسنا اذا كنت مخلوقاً كذلك فلن أستطيع ارتكاب الذنوب ، وحينذك فما قيمة تقواي اذن ؟ ما قيمة التقوى الناجمة عن العجز عن ارتكاب المعاصي...إن الامام في التشيع الصفوي ، يتمتع بنوع من العصمة الذاتية الفاقدة ، لأي قيمة انسانية..ولا قيمة عملية و تربوية لأن الناس لن يكونوا قادرين على التأسي والاقتداء بشخص يختلف عنهم ذاتياً. و العصمة تعبر عن وجود ذوات استثنائية وموجودات غيبية ليس من صنف البشر المخلوق من الطين ، و ليس بوسعهم ارتكاب المعاصي والاخطاء ، و الايمان بان المعصومين الاربعة عشر هم جميعا كذلك . و بالتالي فان الخيانة و الظلم من غير هؤلاء المعصومين تعد امرا و اردا و لا محيص عنه اما العصمة في التشيع العلوي ، هي بمعنى أن قائد الأمة ومن بيده أمور الناس والمجتمع ويتحمل أعبائهم الدينية يجب أن يكون بعيداً كل البعد عن الفساد والخيانة والضعف والخوف والمداهنة على الحق ، ولا يحدث نفسه بإرتكاب الرذائل ابداً. . و العصمة تتأسس على الايمان بنزاهة و تقوى رواد المجتمع على الصعيد الفكري و الاجتماعي و كونهم ائمة مسؤولون عن صيانة ايمان الناس و قيادتهم بالعدل و نبذ الظلم و الخيانة و التبعية لعلماء الفساد و عملاء الاجهزة الحاكمة . (7) في مسألة الوصاية التشيع الصفوي يعتبرها قاعدة تنصيب وراثي و سلالي للحكم على اساس العنصر و القرابة ، بينما التشيع العلوي يقر بأن الوصاية توصية من النبي بأمر من الله لتشخيص الفرد الاصلح طبق معياري العلم و التقوى .

ويمتد الخلاف بينهما الى قضية الامامة ، فالتشيع الصفوي يؤمن باثني عشر اماما معصوما مقدسا من عالم (مافوق الانسان) و هم الوسيلة الوحيدة للتقرب الى الله و التوسل به و الاستشفاع اليه ، وهم اثناعشر ملاكا غيبيا يلعبون دور الآلهة الصغار و يدورون حول اله السماء الاكبر ، غير ان الامامة عند المتشيعين العلويين تمثل القيادة الثورية النزيهة الهادفة لهداية الناس و بناء المجتمع بناء سليما و الارتقاء به الى مستوى الطموح و النضج والاستقلال و تربية (الانسان المافوق) لكي يمثل التطبيق الحسّي للدين و لكي يتسنى للآخرين التأسّي به و الاقتداء بسيرته .

اما الولاية فالصفويون يقتصرونها على حب علي و التهرب من كافة المسؤوليات ، اما العلويون تعني الولية عندهم المحبة و القيادة و قبول حكومة علي و اتباع علي دون غيرهم (8)

المرحلة الثالثة : ترتبط بالعمل على قيام اسلام عالمي امي لا تكوّنه قومية او نعرات مذهبية ، لكن ان يكون الاسلام الرسالي هو الجنسية وهو الوطن ، تزامنا مع ما حدث في الغرب باتحاد الغرب الرأسمالي مع الغرب الشيوعي ، كما اتحد بالامس الاستعمار و المسيحية ، او توافق المسيح و القيصر ، فالمواجهة تفرض قيام العالمية الاسلامية ، و ينبغي ان تسكت الخلافات المذهبية تماما ، و ان تدرك مصادرها وتبعاتها و عواقبها والايدي التي تحركها ، وهي الايدي نفسها التي تحرك مبدأ فصل الدين عن السياسة و تقصد بالدين الاسلامي فحسب ، بينما يوصف ائمة المسلمين بالجنون و الارهاب ، وتوظف اجهزة الاعلام حتى في بلادنا لتغطية رحلات بابا المشبوهة التحريضية ذات الصبغة السياسية ، و كأن عزل الدين يقصد الاسلام فحسب ، والوصول الى هذه المرحلة لابد ان يراعي الامور في مواجهة القضايا المجتمعية حيث ان العالمية او الانسانية واقع متعال تأتي مرحلة طرحها و تحقيقها بعد مرحلة النضال الطبقي ، و طرح الانسانية قبل هذه المرحلة يعد جهلا و هنا تصير الانسانية عاملا ضد الانسانية (9)

و بعد عرض هذه المراحل يكتب المفكر علي شريعتي وصفة الاستطباب و الخروج من دائرة التخلف و التبعية للآخر انطلاقا للاقلاع الحضاري و الالتحاق بركب المتقدمين ، فالتحضر حسبه يعني موت الاستعمار في كل صوره، العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية، والحضارة تعني صنع التاريخ، وهو العمل الذي قام به الرسول محمد عندما جعل من البدو في صحراء قاحلة يحطمون أقوى امبراطوريات الهيمنة ويهبون النضج لكل حضارات الإنسان وثقافته، ولا شك أنها تجربة إنسانية وإسلامية هائلة تجعل العودة إليها مصدرا للوعي والمعجزة الحضارية أيضا.(10)

إن الفرد مركب من عناصر فردية، لكل منها تركيب وصفات وخصائص فيزيائية وكيميائية مستقلة، والمجتمع أيضا ذو تركيب خصوصيات وأحوال وقوانين وقواعد لا تصدق على أي فرد من الأفراد في المجتمع، فالمجتمع «كيان» يشكل الإنسان بحياته وماضيه وحركته خلاياه، والبنية التحتية لأي مجتمع هي محصلة تشكيل عناصره المادية وكيفية تركيبها والعوامل الروحية والمعنوية التي صنعت «شخصية المجتمع».

والعوامل التي صنعت شخصية الجماعة هي الطبيعة والعرق والاقتصاد والشكل الطبقي والجماعي والنظام السياسي والدين واللغة والفن وأصول الإنتاج والتاريخ فيها، فالذي يكون أسرة ويصنعها يكون هو تاريخها.

لكن ما هو موقعك من التاريخ ؟ إن العالم الثالث مجرد ذكرى تاريخية، فلا يوجد الآن أكثر من عالمين، فالعالم هو عالم الراكبين والمشاة، أو الراكبين والمركوبين، الأغنياء والأقوياء وأكلة السحت والرأسماليون وبائعو البضائع ومحددو الأسعار والمصائر، أي العالم الصناعي، ثم عالم الركود والتقليد والاستهلاك والتبعية في الشكل والادعاء والنشيد والعلم.لقد كان دين «الملأ» ينتج الأفيون للمجتمع بانتاجه لمواعظ من هذا القبيل : أنتم لستم مسؤولين لأن كل ما يحصل هو حاصل بإرادة الله ومشيئته .. لا تشتكوا من الحرمان ولا تتألموا فإنكم ستجزون في مكان آخر .. أصبروا على كل شيء لكي يضاعف الله لكم الأجر ! وهكذا كانوا يخمدون احتجاج الفرد ويجمدون حركته الإرادية . كان الجبابرة يستخدمون العنف في مواجة الناس وإخماد ثوراتهم ..لكن الدين كان ينتهج طريقة أخرى في وأد النهضة ورد الإنتقاد وإخماد ثائرة الغضب والإحتجاج وهي تبرير الموقف بطريقة كهذه «إن كل ما حصل قد حصل بمشيئة الله،فأي احتجاج واعتراض سيكون بمنزلة الإحتجاج على الله ومشيئته».(11) وعلى الضفه الأخرى يقف دين الحق في مقابل هذا الدين التخديري التبريري الماكر الذي سلب من الناس شعورهم بالمسؤولية وبرر التميز الطبقي والعرقي في المجتمعات عبر التاريخ.

ويبرز مفكرنا ناقدا ، أن تراث «الكنيسة الصفوية» ، يجعل الأئمة أهم من الأنبياء ، بل ويجعلهم شركاء الله في قدرته ، لكن نفس التراث يحاول أن يجمع نقيضين ، إذ يصور حياة الأئمة الشيعة كأنها حياة استسلام للمصالح الخاصة ، حياة عقد صفقات مع الخلفاء الأمويين والعباسيين ، إذ تقول بعض الكتب(بحار الأنوار أجواهر الولاية..) أبأن بعض أئمة الشيعة تصالحوا مع الخلفاء، لقاء أموال و جوارٍ أغدقها عليهم خلفاء. و ينطبق الامر على علماء فارس في العصور اللاحقة ، وفي القرن العشرين كانوا يميلون الى الشاهات و يستعطفونهم و يتقربون اليهم على حساب الحق و الحقيقة و على اشلاء الجماهير المستضعفة .

وفي الصميم يرفض علي شريعتي المعادلة المتناقضة ، الإمام في السماء شريك لله و في الأرض أجير للخليفة ، و يؤكد بأن الأئمة كانوا بشراً مثلنا ، قادوا حركة التشيع في ظروف صعبة ، جاهدوا وناضلوا، وبذلوا جهوداً فكرية ، ناضلوا بمختلف الأساليب والوسائل... حسب ظروف المكان والزمان (12)، و من ثمة يرفض أي تصوير خرافي لتأريخ التشيع وسيرة أئمته . ويطرح تصورا تأصيليا للتشيع من مبادئه الاولى دون مغالطات فكرية او تأريخية ويجعله مستحضرا من منابعه الاولى كما فهمه المتشيعون الاوائل من الوقائع التي عايشوها و كابدوا ويلاتها حسب الروايات المتواترة عندهم المجلة لعلي بن ابي طالب كرّم الله وجهه و سبطيه

الحسن و الحسين . و مربط الفرس عند علي شريعتي كما يقول الادباء هو رؤيته بأنّ الإنسان يشكل محور الحضارة والنهضة معا وهو المحرّك الأساس لهما وهو عامل التغيير فيهما، وليس الانسان المستلب من « الاستلاب « وهي من المفاهيم التي اعتمدها علي شريعتي في كتاباته ، فهو يرى ان الانسان الحديث أو ما يسمى بالانسان المدني قد استلب من انسانيته الفطرية التكوينية التي وضعها الله له ، فمن خلال احتكاكه بالآلة بشكل دوري ، ومن خلال مزجه التفكير الفكري والعملي في البيروقراطية الحديثة ، اصبح انسانا ممزقا أو انسانا ذو بعد واحد لا يعرف من حياته الا الآلة وتراتبه الهرمي في التنظيم الاداري ، مما جعل من الطاقات الفكرية والجسدية والاحاسيس والمشاعر الانسانية ، طاقات وقدرات لا مجال لاستخدامها في دورة حياته اليومية . ويرى شريعتي بأنّ الإنسان لا يكون صادقا في أيّ عمل اجتماعي إلاّ إذا كان متناسقا مع هذا العمل. و الإنسان عنده ليس ذلك الكائن منتوج البيئة التي لا يقصد بها طبعا البيئة الجغرافيّة كما عرفها الجغرافيون ولا البيئة التاريخية كما عرفها المؤرخون والمعتقدون بحركة التاريخ، ولا البيئة الطبقيّة كما يعرفها الماركسيون، فالإنسان الذي يقوم بعمليّة التغيير الحضاري ويصنع مجده النهضوي هو الإنسان المتحررّ من السنن القديمة ومن التبعيّة والتقاليد، هذه التقاليد التي فرضت عليه قبل أن يوجد، و الإنسان الذي يصنع النهضة هو الذي يفكّر ووجهه متجّه إلى الغد.

والغد عند شريعتي إيديولوجية نتجت عن تجارب عديدة إكتسبتها الإنسانية بأثمان باهظة، وعندما يتحررّ الإنسان ويسيطر على التاريخ فسوف يسيطر على المستقبل، وهذا الإنسان الذي يصنع النهضة لا يكون جديرا ببناء النهضة إلا إذا تخلصّ من سجون أربعة وهي : السجن الأول: سجن الطبيعة والجغرافيا ويستطيع الإنسان بالتكنولوجيا والعلوم التحرر منهما.

السجن الثاني: حتميّة التاريخ ويخلصّه منها اكتشاف القوانين التاريخية وتطوّر حركة التاريخ.

السجن الثالث: النظام الاجتماعي والطبيعي والتخلص منهما يكون في نظر علي شريعتي عبر نظريّة ثورية.

السجن الرابع: سجن النفوس (ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها (13)

هذا ما يجرنا الاشارة الى مشروع مالك بن نبي النهضوي صاحب فكرة « القابلية للاستعمار « و فيلسوف الحضارة من خلال مؤلفاته العديدة باختصار حتى يتبين لنا الفرق بينهما ، فمالك

بن نبي لخّص أسباب تعثر النهضة الإسلامية الحديثة في ثلاثة عوامل وهي: عدم تشخيص غاية النهضة ، عدم تحديد المشكلات الاجتماعية تحديدًا جيدًا، وعدم تحديد الوسائل»، مما أدى إلى التيه والضياع مع التبذير في الوسائل؛ لأن الحركة أصبحت تخضع للصدفة، وبالتالي لم تأتِ بنتيجة في اتجاه معين وفي وقت معقول. وبالموازاة يعرض شروط النهضة، حيث ركز مالك على الإنسان، وفصل في طريقة النهوض به من خلال توجيهه في نواحٍ ثلاثة: توجيه الثقافة، وتوجيه العمل، وتوجيه رأس المال. و عناصر النهضة عنده تتحلل إلى ثلاث عناصر أولية: الإنسان، التراب، الوقت ضمن الفكرة الدينية كعنصر رابع جامع ، فإقامة نهضة لا يكون بتكديس المنتجات، وإنما بحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها.

ومن المفردات التي اشتهر بها في كتاباته ، استعمال شريعتى كلمة الاستحمار، حين يؤكد أنها جاءت بهذا المعنى فى القرآن عن الفقهاء الأحبار "مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا" سورة الجمعة الآية 5 ، فهو اصطلاح قرآنى صحيح ويلخص شريعتى الاستحمار قائلاً: "أى قضية فردية أو اجتماعية، أدبية أو أخلاقية أو فلسفية، دينية أو غيرها، تبتعد عن النباهة الإنسانية والاجتماعية". داعياً إلى التفكر واستعمال العقل وفى كتابه والاستحمار "النباهة"، وبالخصوص فصله المُعَنْوَن "الإستحمار الدينى"، حيث يعتبر هذا الاستحمار من جهة الدين هو الأكبر والأقوى والأعظم منذ العصور القديمة وحتى المعاصرة، وما سماه "الإستخدام الدينى لاستحمار العقول"، والذى تروجه باصطلاحه "طبقة رجال الدين"، وهى طبقة متميزة فى تشويه كل مفاهيم الوعى والعقل والإدراك وسلب الإرادة والتفكير، والتجهيل والغفلة والتخدير، ويعتبرها نسخة كاملة مطابقة لحكم الكنيسة فى القرون الوسطى وأخذها صكوك الغفران والتخلف آنذاك ضد العقل والعلم والفكر، كما يقسم الاستحمار إلى فردى واجتماعى، فيعتبر السلطات الحاكمة المتحالفة ثلاث وهى السياسية والملوكية ومثالها القرآنى فرعون، والاقتصادية الارستقراطية ومثالها القرآنى قارون، والدينية ومثالها القرآنى هو بلعم بن باعورة العالم الفقيه والذى عبر عنه الله "فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث"، وهى متحالفة ضد الفقراء والمستضعفين وقد عبّر عن ذلك بان وقع مصير الدين في أيدي قوات إستحمارية مضادة للإنسانية تتسمى بأسماءٍ كالطبقة الروحانية والطبقة المعنوية والطبقة الصوفية وطبقة الكهنوت الذين إتخذوا من الدين وسيلة لإستحمار الناس-الإستحمار الفردي والإستحمار الإجتماعي. وكلامي هنا يدور حول الدين الإستحماري المضلل ... الدين الحاكم وشريك المال والقوة الذي يتولاه طبقة من الرسميين الذين لديهم بطاقات للدين أي لديهم إجازات للإكتساب تُنبئ عن إحتفاظهم بالدين وأنهم

هم الدعاة وشركاء السلطة والمال والقوة. ماذا يفعل هذا الدين بالإنسان فيستحمره؟ ليس بإستطاعة الدين أن يسلب مني نباهتي الفردية أو مسئوليتي المجتمعية إن عمله ينصب في نقل الإنسان بالنسبة إلى الظروف والزمان أي يقول لك: (:دع الدنيا فإن عاقبتها الموت" ... "إدخر كل هذه المشاعر والأمنيات إلى الآخرة؟!" ليس الفاصل الزمني بكثير: ثلاثون أو أربعون أو خمسون سنة: ما قيمتها؟؟.. بعدها كل شيء سيكون تحت أمرك. إنها سنوات العمر القصير لا قيمة لها دع الدنيا لأهلها ... وهو يقصد بأهلها نفسه وشركاؤه "السلطة والمال والقوة . طروحات فكرية جديدة في المجتمع الاسلامي تلبس ثوب الماركسية .

شريعتي و القومية : تعرف القومية بانها إيديولوجية و حركة اجتماعية سياسية نشأت مع مفهوم الأمة في عصر الثورات (الثورة الصناعية ، الثورة البرجوازية ، والثورة الليبرالية) أواخر القرن الثامن عشر. اما القومية في اللغة العربية «قوم الرجل : شيعته و عشيرته» هكذا في لسان العرب لابن منظور. و لكن في الاصطلاح الحديث هي ترجمة لكلمة nationalism المستعملة في اللغات الأوروبية. و هذا الاصطلاح الحديث دخيل على اللغة العربية، و دخيل على فكر المسلمين. و بناء علي اصطلاح الأوروبيين هذا، فهي تعرض على أنها رابطة للمجتمع تربط بين مجموعة من البشر يشتركون بخصائص وصفات مشتركة. فما هي العناصر التي تؤلف تلك الخصائص و الصفات؟ لم يستطع أصحابها أن يتفقوا على مجموعة العناصر التي تشكل «القومية» و لا أن يحددوا مدلولها بشكل منضبط. فمنهم من قال إن مقومات القومية هي الدين، و منهم من قال هي العادات والتقاليد المشتركة، و منهم من قال هي اللون أو العرق البشري، و منهم من قال هي المنطقة الجغرافية، و منهم من جمعها كلها، و منهم من جمع بعضها و رفض البعض الاخر. اما علي شريعتي اشار بانه ينبغي ابعاد القومية عن مرض عبادة العرق (العرقية) ، او مرض عبادة التراب (الشوفينية) اذ ان مزاجها مستعد دائما لقبول هذين المرضين ، و اقامتهما على قواعد عينية و علمية و انسانية ، فليست القومية واقعا ثابتا ابديا بل ظاهرة جدلية ، بمعنى ان القومية عندما تتعرض الى الرفض و الكبت و التحقير في حد ذاته نوع وكبت القيم و الفضائل (مثل القومية اليهودية التي تعرضت الى الانكار و السحق في المجتمع المسيحي) (14) ، بينما القومية الايرانية ظلت صامتة تماما في مواجهة الفتح الاسلامي ، لكنها تظهر في عهد الحكم الاموي و تسترد الروح ، لان الاسلام كان له شأن بنوع التفكير و العقيدة الدينية فحسب وكان يريد تغيير الشكل الاجتماعي و السياسي والعلاقات الاجتماعية و الفردية في ايران ، في حين ان نظام بني أمية كان يجاهد استنادا على القومية و التفاخر القومي و تحقير امة ايران وقيمتها الثقافية و مفاخرها القومية و قتل تاريخها ، ويواصل شريعتي قائلا ان

القومية ليست مدرسة فكرية قائمه بذاتها بل هي ظاهرة جدلية تميزهافي الظروف الحالية العالمية كاطروحة في مواجهة الامبريالية الاستعمارية في شكلها السياسي و الاقتصادي و بالاخص شكلها الثقافي و الفكري (15) مما يستوجب ادراك ان القومية صنعة خادعة من قبل الجهاز و الطبقة المنتفعة و هي اداة استغلالية ، ويدعو شريعتي الى تغيير شكل النضال فورا بعد انتهاء مرحلة النضال ضد الامبريالية و طرد الاستعمار ، و ان ينتقل الى الداخل ، اما استمرار القومية كوحدة وطنية في صورة صراخ و اناشيد حماسية في زمن غاب عنه العدو هو تغرير بالناس داخل المدينة و ينتقل النضال من مرحلة القومية الى شكلها الطبقي ، فهجومه على القومية ككل والقومية الايرانية لا يخفى على احد ، لانها تعد حسبه ماركة مقلّدة غير نافعة للمسلمين ، بل بالعكس تجلب لهم المآسي و الويلات و الالام ، و هذا ما يتنافى مع تعاليم الدين الاسلامي الصحيحة ، موجه الى كل العالم بكافة شعوبه و مللله و نحله و اطيافه و اجناسه وانواعه ، لا فرق بينهم الاّ بالتقوى و العمل الصالح و الاخلاص وفق ما ورد في النصوص القرآنية و الاحاديث النبوية و في نهج البلاغة المصد الرمز عند الشيعة بمختلف مذاهبهم .

تلك بعض الافكار التي حملها مشروع شريعتي فما موقعها من الحذق الفكري و الحرص المنهجي و التعمق الواقعي ؟ ميزانها نبدؤه ببني جلدته ، فالامام الصدر يقول : «كان لنا صديق ، قائد من قادة الفكر الاسلامي هو الدكتور شريعتي ، .... أديب شامخ ، فكره اسلامي نضالي منفتح . اسلاميته وطبقيته وموقف رجال الدين لم تجعل من دعوة الدكتور شريعتي دعوة محافظة رجعية يمينية كما هو التقليد لان الدعوة الاسلامية تعتبر في كثير من الاوساط دعوة محافظة على الاقل ،لكن دعوة الدكتور شريعتي للاسلام ، دعوة تقدمية ثورية نضالية أو ما نسميه نحن دائما في اجتماعياتنا : دعوة حركية وليس دعوة مؤسساتية . يعني ليس الاسلام دكانا يجب أن نحتفظ بمكاسبه ونأخذ لاجله من الناس ونسخر الناس لخدمته كما حصل بالنسبة للمؤسسات الدينية ..... كان الدكتور شريعتي أحد قادة الفكر الاسلامي في العالم... حورب من قبل الحكم في ايران وحورب أيضا من قبل مجموعة من رجال الدين ، الذين يعتبرون الاسلام حكرا عليهم وميراثه من حقهم وهم وحدهم يفهمون الدين ولا يحق لاحد أن يفهم غيرهم ..... الدكتور شريعتي ، من خسائر الفكر الاسلامي والفكر الحركي والفكر النضالي المعتمد على الايمان بالله سبحانه ولذلك نحن نعتبره فقيدنا وخسارتنا ونكرمه في هذا اليوم ، يوم علي ، مولاه ومولانا ، ونبعث الى روحه أيضا ثواب الفاتحة .(16) اما زعيم الثورة الايرانية الامام الخميني سكب قائلا : لقد أثارت أفكار الدكتور شريعتي الخلاف والجدل أحيانا بين العلماء ولكنه في نفس الوقت لعب دورا كبيرا في هداية الشباب والمتعلمين الى الاسلام .و من جهة اخرى ينظر الى علي

شريعتي على انه من مفكري الثورة الايرانية ناقدا التشيع المتحالف مع السلطة الطاغية التي تأسست اكتسبت شرعيتها منذ قيام الدولة الصفوية... مسلطا سهامه النقدية على التشيع الصفوي مبرزا اختلافه الجذري عن التشيع الاصيل ..التشيع العلوي ... التحليل و الخلاصات التي اتى بها علي شريعتي نابعة من الادوات المعرفية و المنهجية التي صاغها بصفته عالم اجتماع و ليس متدين كهنوتي او شيعي متعصب ، و نظرته حول تحول التشيع الاصيل الى تشيع صفوي ممزوجا بالخرافة المؤسسة للشرعية السياسية ... يمكن ان توظف كآلية تحليل لمناقشة كل اشكال التدين السني او الشيعي او كل دين آخر. و ان الانحراف قد يدخل على اي مذهب..و السلطان السياسي قد يختزل اي عقيدة...و اي عقيدة مهددة باختراق الخرافة... و من المآخذ عليه ان مشروعه يعد دعوة اصلاحية-احيائية منقطعة ، فليست هي استمرار لمشروع سبق شريعتي، وليس هناك مشروعا يكملها بعده. شريعتي (كباقي المتنورين) هو نموذج شاذ في سياق تحريمي-ارثودوكسي لايمنح فرصة التناسل (للبقاء) الا للافكار المتراجعة أو المضيقة ، فهي وحدها تُمنح التراكم الفكري، وأكثر ما يُوهب شريعتي وامثالُه هو الاطراء، كما يحدث مع محمد باقر الصدر.

لكن منهج شريعتي يثير اسئلة كثيرة، فهو (كباقي الحداثيين) يميّع الدين بنزع أهم مكوناته التقليدية: الفقه والعقائد، ليحوله لدعوة أخلاقية. تبعات هذا المنهج الاصلاحي الشائع كبيرة جدا، ويحق لاعدائه نفيه بسببها ، و يلام على انه نقد الماركسية و منهجها و اساليبها في التحليل و النقد و النفوذ الى اعماق القضايا و المسائل الواقعية و الاجتماعية السياسية الاّ انه استعملها شعوريا او لاشعوريا ، نكاية او تاثرا ... ومجملا فالمفكر علي شريعتي عرّى الواقع الاسلامي و الفارسي بالاساس مبينا الاضاليل و الخرافات التي لحقت بالدين ، والتشوهات التي الصقت بمذاهبه المختلفة ، و العقم الذي اصيب به المسلم في كل المستويات و الهياكل و الجبهات ، و الانهيار الاجتماعي بكل انماطه و طبقاته ... فكان التشخيص دقيقا و كاشفا للعلل و الامراض و محددا للاسباب و الدوافع بتعدد اشكالها و روافدها الا ان البدائل العلاجية لم تكن في مستوى التشخيص على البعدين الزماني و المكاني ضمن اطار الحركية التي يسير عليه المجتمع الاسلامي في تمظهراته السياسية الهيكلية – دولة – امة و الضوابط التي تحكمهما داخليا و خارجيا بارتقاء المستويات الدونية الفكرية الثقافية ، العلمية التربوية ، العملية الاقتصادية ، السلوكية الاجتماعية ، القيمية الاخلاقية ... الى الآفاق المستقبلية ، ربما قد خانته المنية وقد غادر الحياة بعد اربع سنوات فقط بعد سن الوحي حين نزل على الرسول المصطفى .

قائمة المراجع :

• يعد المفكر الإيراني علي شريعتي من أهم المراجع الفكرية الإسلامية الذين أسسوا للصحوة الإسلامية المعاصرة في العالم والتي تشكل اليوم أهم حدث سياسي عالمي. ولد شريعتي عام 1933 في محافظة خراسان الإيرانية، شارك وسجن عام 1958، ثم أفرج عنه وتخرج من الجامعة، سافر في بعثه دراسية إلى فرنسا، نال درجة الدكتوراه في علم الاجتماع، ودكتوراه أخرى في تاريخ الإسلام، في فرنسا شارك في النضال العالمي الذي نضج في الستينيات لأجل الاستقلال والنهضة في العالم الثالث ، ثم عاد إلى إيران، وعمل في التدريس الجامعي، وبدأ يتعرض للاعتقال والتضييق، ثم فصل من الجامعة ليعمل في قرية نائية.

انشغل شريعتي بإصلاح الحالة الإسلامية ومراجعتها، وبدأ يعمل من خلال حسينية الارشاد التي كان والده محمد شريعتي من مؤسسيها مع عدد آخر من المثقفين الإسلاميين في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي وتصحيح منابع التراث الشيعي والترجمة، ولكن السلطات الإيرانية أغلقت الحسينية عام 1973، واعتقلت شريعتي الأب والابن، إلى أن أفرج عنه عام 1975 بوساطة جزائرية، ثم سافر إلى لندن عام 1977، ولكنه توفي بعد شهر في ظروف غامضة، وترك وراءه تراثا فكريا وفلسفيا ضخما يتكون من حوالي مائة وعشرين عملا.

•• الصفوية : الصفويون ، آل صفويان ، سلالة تركمانية من الشاهات التي حكمت بلاد فارس الفترة ما بين 1501 الى 1724 ، اسس الدولة الصفوية الشاه اسماعيل الصفوي و تنسب الى السيخ صفي الدين الاردبيلي ، الذي كان يتزعم طريقة باطنية متطرفة ، يتبنى الكثير من مبادئ التشيع الباطني المغالي .

-1 علي شريعتي أدين ضد الدين- ص:175

-2د علي شريعتي « دين ضد الدين « دار الامير للثقافة و العلوم – الآثار الكاملة – بيروت ، لبنان ، 2007 .

-3 د- علي شريعتي « العودة الى الذات « ترجمة د- ابراهيم الدسوقي شتّا ، الزهراء للاعلام العربي ، القاهرة – مصر – الطبعة الاولى 1986

-4 المصدر السابق ص 24

-5 المصدر السابق ص 23

-6 المصدر السابق ص 363

-7 علي شريعتي « التشيع العلوي والتشيع الصفوي» دار الامير للثقافة و العلوم – الآثار الكاملة ، بيروت ، لبنان ص:250

-8 علي شريعتي « التشيع العلوي و التشيع الصفوي « ص309

-9 علي شريعتي « العودة الى الذات « ص320
-10علي شريعتي « هكذا تكلم شريعتي « ص62
-11نفس المصدر السابق ص62
-12المصدر المصدر السابق ص63
-13د يحي ابوزكرياء من مجلة الشهاب الالكترونية
-14علي شريعتي « العودة الى الذات « ص321
-15نفس المصدر السابق ص321
-16مسيرة الامام الصدر الجزء 11 ص 154 ـ 155 من منشورات وزارة الثقافة الايرانية